

شيطان .. الفرقان الحق

في دراساتنا البلاغية التي نتناول فيها بعض ما جاء به الكتاب المسمى بـ " الفرقان الحق " نقف الآن على الآية الأولى من السورة التي حملت اسم " سورة الضالين " .

نقول الآية الأولى :

وَأَلْبَسَ الشَّيْطَانُ الْبَاطِلَ ثَوْبَ الْحَقِّ وَأَضْفَى عَلَى الظُّلْمِ جِلْبَابَ الْعَدْلِ ، وَقَالَ لِأَوْلِيَائِهِ أَنَا رَبُّكُمْ
الْأَحَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي مِنْكُمْ كَفْوَاً أَحَدٌ

الشيطان يفصل ... وأولياؤه يلبسون

يريد الشيطان - حسب ما جاء في الآية - أن يستر الحق ويخفي العدل، فيختار للأول ثوباً، وللثاني جلباباً، فإذا كان الحق واضحاً بيّناً حتى جاء الشيطان وستره بالثوب، فما بال الظلم إذاً حتى يضيفي عليه الشيطان جلباباً ؟

والجلباب - كما ورد في المعجم - هو ما تغطي به المرأة رأسها وصدرها، ويلبس فوق الثياب، وهو الملاعة التي تشتمل بها المرأة. ولا يلبس الرجل جلباباً.

هذا يعني أن ثمة مشكلة في إضفاء جلباب العدل على الظلم (وهو مذكر) والجلباب

(للأنثى) !!..

ويعني أن الظلم كان مستوراً قبل إضفاء جلباب العدل عليه ، انطلاقاً من أن الجلباب يلبس

فوق الثياب...!!

ويعني أيضاً أن الشيطان لم يستطع أن يخفي الظلم كاملاً عن أوليائه، فالجلباب لا يغطي

كامل الجسد...!!

وإذا كان الجلباب لا يغطي كامل الجسد، فمن الخطأ إذاً أن يستعمل معه الفعل (أضفى) ،

فالفعل أضفى : معناه أسبغ، أي أتم وأكمل. وكل شيء طال إلى الأرض فهو سابغ

...والجلباب ليس كذلك !!!

يقول ابن هانئ الأندلسي:

وما الشمس تكسو كلَّ شيء شعاعها بأسبغَ عندي من نذاك ولا أضفى

لقد فشلت إذاً الصورة الفنية - التي أريد لها أن تعبر عن الفكرة - في أداء مهمتها ... فلم

تعد الصورة هنا عنصراً بلاغياً ... بل أصبحت توليفاً غوغائياً ...!!

الشيطان رب أوليائه

لنعد إلى الآية ... ونتأمل يخاطب الشيطان أوليائه مذكراً إياهم بأنه ربهم الأحد ...

وكلمة (الرب) حسب ما جاء في المعجم ، تعني : المالك والسيد والمدبر ، والمربي ، والقيّم ،

والمنعم والمصلح ... فالشيطان إذاً يذكر أوليائه بنعمته عليهم ورعايته إياهم مؤكداً تفردَه

بصفة (الربوبية)

وكلمة (ربّ) تأتي على حالتين :

1- إما أن تأتي معرفة بـ (أل) فنقول (الرب) وهنا تعني الله سبحانه وتعالى ،

ذلك أنها تحمل معنى الإطلاق لا التخصيص .

2- أو تأتي مضافة فنقول (ربّ البيت) مثلاً : أي صاحبه ومالكه وسيّده ...

وهذه ربوبية أيضاً ، غير أنها مقيدة ، مخصصة ، ليس فيها معنى الإطلاق .

الشيطان في الآية يقول (ربكم) فإذا جاءت كلمة (ربّ) مضافة والمقصود (ربّ الأولياء)

، فيصبح معنى العبارة: أنا ربّ أوليائي الأحد .. لم ألد ولم أولد .

إذا كانت كلمة (رب) تأتي أحياناً مضافة ، فنصف بها أحداً من البشر كمثّل (ربّ البيت)

، إذ هي من الصفات التي يكون للبشر فيها نصيب، غير أنه نصيب مقيد ، غير مطلق ، كما

في قولنا : فلان رحيم أو كريم وتلك من أسماء الله الحسنى .

فإذا كانت كلمة ربّ مما ينال منها البشر نصيباً - وإن مقيداً - فكيف تأتي في سياق يتحدث

عن الوجدانية

(ربكم الأحد لم ألد ولم أولد) .

ولنرجع إلى المصدر الذي اقتبست منه العبارة ، وهو (القرآن الكريم) ، وفيه يقول الله

سبحانه وتعالى :

" قل هو الله أحد "فجاء اسم الله الدال على الألوهية - وهو ما لا يكون للبشر فيه نصيب -

مع الحديث عن الوجدانية ... وهذا غاية البلاغة ومنتهاها كما نرى .

إذاً فكلمة (ربكم) لا تناسب السياق الواردة فيه .

ليس للشيطان شبيه بين أوليائه

بعد أن يذكر الشيطان ربوبيته لأوليائه إنعاماً وعطاءً وامتلاكاً ، مؤكداً وحدانيته وتفردّه بذلك . يذهب إلى نفي الشبيه المكافئ له في ربوبيته تلك ... فيقول :

(ولم يكن لي منكم كفواً أحد)

ولننظر في كلمة (منكم) !!..

فإذا لم يكن لهذا الربّ المزعوم كفواً من أوليائه .. فهل معنى ذلك وجود كفء من غير أوليائه ؟

إذ خص الشيطان عدم وجود المثل له بـ (أوليائه) فقط .

والعبارة - كما لا يخفى على أحد - مقتبسة من قول الله تعالى " ولم يكن له كفواً أحد " .

غير أن مضمون الآية يشير إلى أنه ليس لله شبيه أو مثل أو مكافئ على إطلاق المعنى ، لا تخصيصه .

في القول (أنا ربكم الأحد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي منكم كفواً أحد ..) اقتباس من القرآن الكريم ، يهدف إلى تشويه النص القرآني، والإساءة إليه، وادّعاء بطلان ما جاء به ، وأنه وساوس شيطان لا كلام خالق السموات والأرض . لكن لمسات الإضافة أو التغيير التي

طالت السورة المقتبسة من القرآن الكريم – على قلّتها – أدّت إلى تخلخل المعنى المراد من الاقتباس وتشويهه .

ذلك أن النص القرآني نسيج متداخل متآلف متكامل من البلاغة والبيان ، لا يمكن سل خيط من خيوط هذا النسيج أو إضافة خيط إليه ، دون أن يطل تجانسه خلل، أو يعتري تناغمه وانسجامه تشويه، مما لا يخفى على من يمتلك حداً أدنى من المعرفة اللغوية أو الذائقة البلاغية .

بقلم الباحث: ياسر محمود الأفرع

yaserakra@maktoob.com